سمفونية الصحراء

للأستاذ عبد الحق فاضل

سئلت ذات مرة أن اكتب عن **اللغة العربية (غناها وخصائصها)** .

غناها يعنى واحدة من خصائصها ـــ وخصائصها تعنى مزاياها وعيوبها .

عيوب العربية

غير قليلة ، لا تحصى كثرة . منها صعوبة تعلمها بسبب كثرة مفرداتها . ومترادفاتها ، على المتعلم ، وقد روى أحمد بن فارس عن الثعالبى أن حمزة الاصبهانى قد جمع من أسماء الدواهى ما يزيد على اربعمئة ! ومع انه اورد ذلك فى معرض المباهاة بغزارة معين العربية ووفرة مفرداتها لم يسعه الا أن يكمل الرواية بقوله : « وذكر أن تكاثر أسماء الدواهى من الدواهى » !

وجمع بعضهم للاسد خمسمئة اسم وللحية مئتين ! . .

وقد سأل الرشيد الاصمعي « عن شعر لابن حزام العُكلى ، فسره ، فقال : يا أصمعى ، إن الغريب عندك لغير غريب ، قال : يا امير المؤمنين ، الا اكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسما ؟ »*.

كذلك رووا عن ابى العلاء المعرى أن احد السفهاء لم يعرفه فقال له : يا كلب ! فاجابه المعرى : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ! وبهذا الجواب عرف نفسه بأنه من العلماء ، وردَّ الشتم على الرجل، وشتمنا جميعا . . فمن منا يعرف للكلب ولو سبعة اسماء ؟

وأسوأ من تعدد الالفاظ للمعنى الواحد تعدد المعانى للفظة الواحدة ـــ مما سبب الخلاف فى فهم الكثير من النصوص الجاهلية والاسلامية .

ثم هناك عدم اطراد المعانى فى استعمالات الكثير من صيغ التفاعل والتفعيل والتفعل والاستفعال ونحوها ، بالرغم من اطراد تصريفها .

وأدهى من ذلك عدم اطراد تصريف الافعال الثلاثية نفسها وهى العمود الفقرى للغة ـــ ما يتطلب تعلم تصريف كل فعل على حدة ، ماضيه ومضارعه ومصدره ، بل مصادره فى الكثير من الاحوال . . منها مثلا : كتب يكتب (كَتْباً وكتاباً وكِتبة ـــ بالكسر ـــ وكتابة) ، وثار يثور (ثَوْراً وثُؤُوراً وثورانا) .

هذا الى كثرة الشواذ والمستثنيات فى كل قاعدة تقريبا .

حتى الفاعل يدل على المفعول احيانا . الا تصدق ؟ الجسد الكاسى (يعنى المكسو) والانف الراغم (يعنى المرغوم) !

* المزهر 1 / 325 .

حتى المؤنث يدل على المذكر احيانا ، مثل نسّابة (بالتشديد ، اى نسّاب) وراوية (اى راوٍ) .. ومثل حمزة وطلحة وعنبسة : اسماء رجال !

حتى المذكر يستعمل للمؤنثة احيانا ، مثل : ظئر ومرضع وحامل .. ومثل حَذام ونَعم وزينب : اسماء نساء .

وهناك ما يطلق على الذكر والانثى كالخادم والفعيل كالجريح والفعول كالصبور .. والطفل يعنى الذكر والانثى والمفرد والجمع !

ومن المفرد الذى يدل على الجمع عدا ذلك : الركب والسفر والسَكْن (كلها زنة النصر) اى الركاب والمسافرون والسكان .

ثم لديك المفرد الذى لا جمع له من لفظه والجمع الذى لا مفرد له من لفظه ..

اما جموع التكسير فأىّ شىء نقول عنها ؟ السيف جمعوه على : سيوف واسياف وأَسْيُف (كأرؤس) ومَسْيَفَة (كمجزرة) .. والاسد جمعوه على : أُسُد (ككُتُب) وأُسْد (كسُكْر) وأُسود (كرؤوس) وآساد وآسُد (بضم السين) وأُسدان (كجُرذان) وماسدة .. والشيخ على : شيوخ (بالضم) وشيوخ (بالكسر) واشياخ ، وشِيخة (كصيغة) وشِيخَة (كديكة) وشيخان (كحيتان) ومَشْيُوخاء (بالفتح) ومشايخ ومَشِيخة (كمدينة) ومَشْيَخَة (كمهزلة) .

والاسماء التى لا تملك مثل هذه الثروة الطائلة من تعدد الجموع لا يمكن التوصل الى معرفة جموعها مهما قل عددها ، عن طريق القياس ، فلا بد من تعلم كل واجد منها بالسماع . اما حالات جمع الجمع فنعفيك من سردها وحسبنا وحسبك منها قولهم : « ليس فى كلامهم جمعٌ جُمِعَ ستَّ مرات الا الجمل فانهم جمعوه : اجمالا ، ثم اجمالا ، ثم جاملا ، ثم جمالا ، ثم جمالة ، ثم جمالات . قال تعالى : « جِمَالَةٌ صُفْرٌ » فجمالات جمع جمع جمع جمع الجمع » ! *

ثم يأتيك العدد والمعدود فيبطشان ما شاء لهما البطش بقواعد اللغة افرادا وجمعا ، وجرا على الاضافة آناً ونصبا على التمييز أوانا ، وتغيير حركة آخر المعدود حسب موقعه من الاعراب طورا وبناءه على النصب لغير سبب مفهوم طورا آخر ، وتأنيثاً مع مذكر وتذكيرا مع مؤنث فى حالات دون حالات .

وما ذكرنا من مشاكل هذه العربية وتعقيداتها غير القليل جدا من الكثير جدا ، وما على من يريد ان يتفهم الحال على شىء من حقيقتها الا أن يتورط فى قراءة ايٍّ شاء من تلك المؤلفات العديدة الموسمة فى قواعد اللغة صرفا ونحوا وتخريجا .

فمن جراء هذا كثرت المشاحنات والخصومات بين جهابذة العلماء انفسهم فى العبارة ما معناها ، واللفظة ما معناها او ما موقعها من الاعراب — يجهّل (بالتشديد) بعضهم بعضا ويسبّه ويشنّع عليه .

انى لأشعر بالعطف على كل اجنبى يتعلم هذه اللغة ، بل انى ليأخذنى العجب من نفسى احيانا كيف تعلمت بعض قواعدها المعقدة كحالات العدد والمعدود، والتمييز بين طائفتَيْ (بَقِيَ يبقى بَقُوا يَبقَوْن .. ومَشَى يَمْشِي مَشَوْا يَمشُون) اللتين لم يعد يفرّق بينهما الا الاغلون .. المتنطّسون .

وما لنا نرثى للاجانب ، وها هم تلاميذنا اولادنا المساكين يعانون من تعلمها رَهَقاً ما بعده رهق ، ويرسب بعضهم العام او العامين فى فصله من اجلها ! حتى غدت عند الاكثرين منهم اشق مواد الدراسة والعنها .

ما اقول كل هذا — ويمكن ان يقال اكثر منه — لاندد بلغتى التى اتعشقها ولا اعدل بها لغة فى التاريخ — ولا فى الجغرافيا — لكن هذه المصاعب فى تعلمها فى هذا العصر الذي تتعدد فيه مواد الدرس ، والكثير منها علمى تطبيقى مما يفتقر اليه كل بلد متحضر او سائر فى سياق التحضر — هذه المصاعب اللغوية — بل المصائب اللغوية — قد اضعفت تعلم العربية فزادت اغلاط الكتّاب والمترجمين الى درجة خطيرة حقا وركّت اساليبهم حتى اصبحت الاخطاء والركة تراثا للجيل الجديد واصبحت اللغة تزداد ضعفا وانحلالا يوما بعد يوم .

هذه المشاق والتعقيدات لم يكن يحس بها العربى الجاهلى لانه يرضع اللغة مع الحليب ونادرا ما كان يلحن . والعربى الاسلامى كان يرضعها مع الحليب ايضا لان لغة الكلام كانت ما تزال الفصحى ،

* المزهر 2 / 89 .

وكان يدرسها فى نفس الوقت ويجد فى درسها متعة ومباهاة . امـــا اليوم وقد تغيرت الظروف هذا التغير الهائل فقد اصبح تعلم اللغة على الاسلوب القديم من المستحيلات ـــ الا على ذوى الاختصاص . حتى ذوو الاختصاص وحتى حملة شهادة الدكتـــرة المتخصصون باللغة يرتكبون احيانا من الاخطاء ما ليس مقبولا لو صدر عن تلاميذهم .

وما زالت الاخطاء المشتركة تتزايد والعارفون باللغة يتناقصون . ولسوف ينفرط عقد العربيـــة فى بضعة اجيال حتى تغدو لغة عامية مشتركة بين الاقطار العربية ، بلا حركـــات اعـــراب ولا ضـــوابط . . وتنفصم الصلة بيننا وبين تراثنا المؤثل الباهر ذاك ، فى ميعة نهضتنا ونشوتها .

ربّ يسّـــر

ولو كان تعدد القواعد وتنوعها وكثرة الشواذ مما يعد ثروة لغوية مثل تعدد المترادفات اذن لكانت العربية اثرى اللغات بقواعد النحو والصرف ايضا ، وهى فعلا اغناها بكتبها النحوية واللغوية وتخريجاتها وتأويلاتها ترهـــق الدارســـين ولا تضيف الـــى العلم والمعرفة بشؤون الكون واسرار الحياة ، قتيلا .

عند ما تسلم النحاة هذه اللغة درسوها ومحصوها واخذوا بما اتفقت عليه اكثرية القبائل ، ونفوا ما انفردت به قبيلة او قبائل مما يخالف الاغلبية . نبذوا مثلا لغة « نحن الذون صبّحوا الصباحا » واخذوا باللغة الأروج وهى لغة (الذين) مع ان الاولى اصح فى حالة الرفع ، ونفوا رفع اسم (إنّ) فى لغة « إن هذان لساحران » ، ولغة (استمّرينا) بمعنى (استمررنا) ، وابطلوا عمل (ما) الحجازية . . والغوا نطق بعض الحروف فى بعض اللهجات لندرتها ولانحصارها فى عدد محدود من العرب مثل : الكشكشة والنشنشة والتضجّع والاستنطاء وما الى ذلك * . . بصرف النظر عما اذا كانت حسنة او سيئـــة .

وبالرغم من كل ما حذفوا مما لا يكاد يحصى كثرة ، وجدوا مستثنيات كثيرة تشذ عن القواعد العامة ـــ لكنها مستثنيات مشتركة بين كثير من القبائل فلم يحذفوها بل قعّدوها وفرضوها علينا . حذفوا الكثير وبقى الاكثر ، وما علينا نحن اليوم إلا ان نحذو حذوهم ونكمل ما بدأوا فنلغى الباقى من المستثنيات الزاخرة مراعاة لظـــروف عصرنا وابقاء على كيان اللغة الذى يوشك ان ينهـــار ، واللغة على كل حالة اداتنا ولسنا اداتها .

وتقييس اللغة ليس من اختراعنا فقد كثر القائلون به والداعون اليه ، من الاحدثين ومن الاقدمين الذين قال بعضهم مثلا ان كل اسماء الجمادات يجـــوز فيهـــا التذكير والتأنيث ، واقترح بعضهم تقييس الافعال الثلاثية وتوحيد ابوابها الستة فى باب واحد كفتح يفتح مثـــلا . والذى نقترحه نحن بدلا من ذلك تصنيفها بحسب معانيها للاستفادة منها اولا والتخلص من فوضاهـــا الراهقـــة ثانيا . . بالاضافة الى ضرورة تقييس مصادرها بـــدلا من تركها من غير ضابط ، على السماع . والسماع على كل حال لم ينقل الينا من اللغة الا الجزء الاقل .

حتى لو لم يكن القدامى قد قالوا من ذلك شيئا فواجبنا نحن اليوم تجاه لغتنا وتجاه انفسنا ان نقـــوله ونقول معه كل ما نـــراه صوابا .

ولا مفر من التنازل عن بعض الاجزاء ، والا خسرنا الكل خسرانا مبينا . وان مع العسر يسرا .

ومتى تم لنا اصلاح لغتنا العظيمة وسهلنا تعلمها تمت لنا مزاياها وساغ تعلمها على ابنائها وعلى الاجانب الذين سيقبلون عليها ايما اقبال ولا شك ، وخاصـــة يوم ياخذ اهلها العرب مكانهم الدولى والحضارى فى الطليعة مع الشعوب التى تقود الرقـــى البشرى علما وتقنا وانسانية وسلاما . . فتكون لغتهم بالاضافة الى مزاياها الاخرى ، التى سنتحدث عنها وشيكا ، اكمل اللغات بحق واوفاها بحاجات العصر . بل ان بعض الشعوب المسلمة سوف تتبناها بدلا من لغاتها الحاضرة ولا سيما اذا كانت لغاتها هذه ليست بالقومية الاصيلة . وفى باكستان مثلا حركة كبيرة تدعو الى تبنى العربية فيحتج عليها المعارضون بصعوبتها . والكثيرون من طلاب اللغات فى الجامعات العالمية يودون تعلم العربية ذات المجد والتاريخ قديمـــا وذات الاهميـــة السياسيـــة والاقتصادية حاضرا ، لكن ما يسمعونه عن هذه الصعوبة الشاذة يصرف الاكثرين منهم الى تعلم لغات اخرى .

لا ندرى بعد كل هذا ـــ ايها العزيز القارىء ـــ ما رايك فى اى الابوين اشد حبا لولده المريض . . ذاك

---

* للمزيد يراجع : احمد تيمور باشا ـــ كراس « لهجات العرب » .

الذى يسلمه ليد الجراح يفحصه ويكشف علته او علله ثم يجرى له الجراحة تسيل دمه وتبضع لحمه لتشفيه مما يعانى فيتمتع بالحياة ناشطة منتجة ، أم ذلك الاب الذى يخشى عليه الالم فيحوطه بالحنان التقليدى المتهيب الجزوع ويتركه خاملا يذوى ويذوى الى أن يفارق الحياة.

نأتـــى الى المزايـــا . .

مـــزايـــا العـــربيـــة

ولئن كانت كل اللغات تشارك عربيتنا فى الكثير من عيوبها فان لها لمزايا تنفرد بها دون لغات اهل الارض منذ ظهرت اللغات ونطق ابن آدم .

من هذه المزايا اولا هذه الكثرة الكاثرة فى المترادفات والصيغ والاشتقاقات ـــ مما ذكرناه فى عداد العيوب بالنسبة الى المتعلمين ، فهى نعمة للادباء المترسين الحذاق هذه المرة . . مع وفرة طائلـــة فى التعـــابير الحضارية والفكرية والشعورية ، الى جانب الالفاظ الصحراوية البدائية . فمع أن المعجم العربى (معجـــم بدوي) لان رواة اللغة لم يأخذوا عن الحضر ولا عن القبائل المجاورة للحضر أو الاعاجم ، بل اقتصروا على البدو الخلّص الاقحاح . . لشد ما يدهشنا ما نراه من غزارة المادة الحضارية والفكرية الراقية فيه .

هذه الثروة الفاحشة ساعدت العرب منذ القدم على قرض الشعر والتصرف وتنويع طرائق التعبير فيه ، ونظم المطوّلات من القافية الواحدة يبلغ عديد بيوتها المئة والمئتين ـــ ما لا نظير له فى اية لغة اخرى .

ثانيا : تبين لنا فى ابحاث سابقة ان اصل الآريين قد كان من الجزيرة العربية ، ومن ثم فان اللغـــات الآرية شرقية كانت كالفارسية والسنسكريتية واليشتونية (الافغانية) ، أم غربية كالاغريقية واللاتينية والكلتية والغالية ووارثاتها الاوربيات الحديثات ـــ هذه اللغات كلها مع اللغات الحامية والسامية : بنات العربية .

ثالثا : ومن مزاياها الخطيرة غير المنظورة انها اصيلة ، أو باصطلاحنا اثيلة ، لانها من صنيع اهلها ، نبتت ونشأت واكتملت فى موطنها ، على السنتهم . . خلافا لمعظم اللغات الاخرى ، حية أو ميتة ، قديمة أو حديثة . . لانها كلها لم تنبت فى الارض التى يتكلم بها اهلها ولا هم الذين صنعوها أو نشّؤوها وربّوها ، هذه الخصلة الفذة انجبت المزيتين التاليتين .

رابعا : عند تأثيلهم الالفاظ الاوربية يعيدونها ـــ كالذى قلنا مرارا ـــ الى بعض اللغات الآرية القديمة على الاغلب ويقفون عند ذلك الحد ، لكن العربية ذات الثروة القارونية أوحت لنا ذات يوم عند تأثيلنا لبعض الفاظها أن نرجعها الى بداياتها الاولى التى حاكى بهـــا الانسان الاول بعض الاصوات ثم تطورت على مـــر الاجيال حتى تكونت منها الفاظ جديدة فى المعنى والمبنى، مثل تسمية الفرّوج (صوصي) فى بعض الدارجات من صوته ، والمواء من قول الهرة (ميو) ، والهواء مـــن صوته (هووو) ، وما الى ذلك . فهذا الاثل البدىء الصوتى الذى سميناه (الرّسّ) الذى يعنى معجميا : بداية الشىء ، ادى بنا الى وضع ما سميناه (علـــم الترسيس) اى البحث عن ارساس الالفاظ ، لا للغة العربية وحدها بل كذلك للآريات والحاميات والساميات اللواتى قلنا انهن بناتها ، لان الكثير من الفاظهن ما زال يمكن ارجاعه اثلا الى اللغة الام . وهذا اظهر لنا أن اللغة العربية قادرة بمفردها أن تبرهن على صحة (علم نشأة اللغة) وتكشف عن اسرار تكونهـــا ونضجهـــا وطرائقها التطورية العجيبة .

خامسا : ومن افضال العربية ومزاياها أن فيها الفاظا كثير عديدها عريقة النسب جد قديمة فى الوجود ، منذ عهود ما قبل التاريخ اى قبل عهود اختراع الكتابة، تدل على معان واحداث باد اهلوها ولم يبق من الآثار التنقيبية ما يدل عليها ، ومن مقارنة تلك الالفاظ بعضها ببعض ومراقبة سيرها التطورى من زمان الى زمان وانتقالها على الخريطة من مكان الى مكان على الاغلب ، يمكن استخلاص حقائق تاريخية مجهولة لولا سجـــل اللغة ـــ العفوى ـــ هذا لبقيت الى الابد مجهولة .

منشأ العيوب والمزايا

هذه المزايا وتلك العيوب . . ما منشؤها ؟

لندهش القارىء العزيز نقول ان منشأهما واحد. فاللغة العربية بحسناتها وسيئاتها ليست الا حصيلة رحلتها الطويلة فى التاريخ وترحلها المتنقل الدائب فى حيز محدود من الجغرافيا ـــ المعربة .

كنت قرأت بحثا للمؤرخ العالمى المشهور (توينبى) عن تحول الجزيرة العربية الى هذه الصحراء الرملية بعد أن كانت فى العهد الجليدى غابة لفّاء تزخر بالحياة

والمياه . موجزه : ان سكان المنطقة حين صوّحت بهم الغابة الفيحاء وتناقصت خيراتها كانوا ثلاث طوائف ، فطائفة هاجرت الى مناطق خصيبة اخرى فنجت ، وطائفة كيفت نفسها مع البيئة الجديدة فعاشت ، وثالثة لم تهاجر ولم تستطع أن تتكيف مع البيئة فبادت . ولم يتحدث (تويني) عن النتائج اللغوية التي قد تكون نجمت من هجرة النازحين وتكيف الباقين . وليس لنا أن نعاتبه فهو مؤرخ لا لغوي ، وانما نحن المطالبون بأن نبحث ونتساءل .

في وسعنا ان نقول بسهولة ان تلك الهجرات نقلت لغة القوم ولهجاتهم الى المناطق التي هاجروا اليها .. الى ايران فالافغان فالهند شرقا ، والى الهلال الخصيب فالاناضول فاوربا شمالا ، والى الحبشة ومصر فالشمال الافريقي الى اقصاه غربا . يتأيد هذا لنا اذا تتبعنا الكثير من الالفاظ المتشابهة بين العربية ولغات هذه الاصقاع ولا سيما في الضمائر واسماء الاشارة والالفاظ الطبيعية البدائية — كما سبق أن قلنا في ابحاث سابقة . والاوربيون يسمون لغاتهم (اللغات الهندية / الاوربية) لانهم وجدوا شبها بين الفاظ لغاتهم والفاظ السنسكريتية (اللغة الهندية القديمة)، واذا كان ذلك ينبيء أن الاوربيين قد قدموا اصلا من الهند فان استنتاجنا ينبيء أن الكثيرين منهم قدموا من الارض العربية راسا ايضا . وأية كانت الحال فان من البديهي أن بوسعنا أن نسمي تلك اللغات على وجه الاجمال باللغات (العربية / الهندية / الاوربية) .

فمن اجل هذا قلنا في مطلع الحديث ان اللغة العربية أم اللغات الآرية بالاضافة الى الحامية (لغات الشمال الافريقي والصومال) والسامية (لغات الهلال الخصيب ومصر والحبشة) ، وان العربية ليست قادرة على ترسيس الالفاظ لنفسها فقط بل لبناتها من هاته اللغات ايضا .

ان حياة الترحل والنُجعة في تلك البيداء العربية تسمت القوم بطونا وقبائل كما تسمتهم مواطن الخصب المستديم الى قرى ومدائن . وتنتقل تلك البطون والقبائل على غير نظام — واحيانا على نظام — من منطقة في موسم الى اخرى في موسم آخر .. فتتقارب طورا وتتباعد طورا ، ويندمج بعضها في بعض آونة وينشطر بعضها من بعض أوانا .. وكثيرا ما تضطر الظروف عائلة من القبيلة الى الانسلاخ من مجموعتها .. او فردا يلتجيء الى عشيرة اخرى فيتزوج وينجل فيهم .

وفي جميع الحالات يأخذ الافراد والجماعات لغتهم معهم حيثما ذهبوا . واذا بحياة العزلة تطور اللغة على السنة فئة في اتجاه غير الذي تتطور فيه على السنة فئة اخرى . فما كانوا يطلقونه على الارض الصلبة البيضاء هنا يطلقه بعضهم هناك على الارض البيضاء ولو كانت رخوة ، وما كان يطلق على التل الصغير صار بعض المنشقين يطلقه على الجبل الذي يجدونه في ارض نجعتهم مثلا . وقد سبق ان استشهدنا على مثل هذه التطورات بالكثير من النماذج ، نذكر منها هنا (الأبرق) الذي اصل معناه بياض يلمع في لون آخر كالبرص ، فصار يعني معجميا كل شيء اجتمع فيه سواد وبياض ، ثم صار يعني الارض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين .. ثم نطقه قوم (الابلق) بنفس معناه الاول اي : الاسود والابيض . وهو ينطق (بْلَق) بسكون اوله في الدارجة المغربية ويعنون به : الشديد بياض البشرة . وهكذا اختص بلون واحد وفقد الآخر . لكن نفس الصيغة اي (black) تعني بالانكليزية اللون الآخر فقط اي الاسود . وهي تنطق blanc بالفرنسية و بالاسبانية blanco وblanco بالايطالية لكن بالمعنى المغربي اي الابيض .

واسم الحيوان صار يعني حيوانا آخر او اكثر من حيوان مثل السِّمّة (كالهمة) وهو من اسماء الاسد اطلق على الذكر من الحيّات وانثى التنفذ .

ويتغير النطق كذلك اذا كان احد الابوين التغ او ارتل فيؤثر في اولاده . والاغلب ان الكبار يقلدون رؤساءهم في النطق ولا سيما شيوخ العشائر .

.. فيكون اختلاف اللفظ في جميع هذه الحالات وغيرها — وهي كثيرة — منشأ الفاظ جديدة متقاربة في المبنى والمعنى ، وهو ما اثار تعجب قدامى اللغويين واعجابهم مذ عدّوه من بدائع العربية وسموه تصاقب المعاني بتصاقب الالفاظ . من النماذج الكثيرة : سل ، سلت ، أصلت .. هواء ، هباء ، هباب .. قص ، قصم ، قسم ...

وقد تتباعد الفاظ متصاقبة فلا يبقى بينها شبه ظاهر ، مثل فعلَيْ : قطّ وهذّ ، فقد تطورت (قط) هكذا : قطّ — قدّ — قذّ — خذّ — حذّ — هذّ ..

وان كان المعنى قد ظل هنا ضمن نطاق (القطع) فانه قد يتغير مع تغير اللفظ في بعض مناحي التطور

مثل : حذّ ــ حسّ ــ حشّ ــ عش ، عاش ، عيش : (حياة أو خبز) .. أو هكذا : حش ــ حشا ، حشية ، ومنها حشية الثوب ، ثم حاشيته ، ثم حاشية الكتاب . وما أبعد كل هذا عن الرس (قط) فى اللفظ والمعنى .

ومن أمثلة اختلاف النطق ما زال القاف يلفظ فى دارجاتنا على أربعة أوجه ما بين بدو وحضر فى مثل : قاعد ، كاعد ، جاعد ، آعد .

فاذا كان هذا شأن الكلمة من رسّ واحد فما بالنا بالكلمات الكثيرة المنحدرة أساسا عن ارساس شتى؟

اظننا فهمنا من كل ما تقدم كيف تعددت الفاظ المعنى الواحد وكيف تنوعت معانى اللفظة الواحدة مما اغنى اللغة ــ ومن ثم كيف تباينت واضطربت طرائق التعبير واختلفت قواعد النحو والصرف .

فاذا تلاقى بعض أولئك الضاربين فى آفاق تلك الجزيرة العربية الفسيحة الارجاء ، فاندمجت قبيلة فى قبيلة .. اندمجت اللغتان .. لا كما هى الحال فى الحضر حيث يقيم كل فريق فى حى من البلدة الواحدة فيظلون متجاورين محافظين على لغتهم ولهجتهم .. فان القبيلة فى البادية كلها حى واحد ، يلعب صغارها مما دون تمييز بين طبقات ، ويحضر كبارها كلهم فى مجلس الشيخ على سواء ، ويضربون خيامهم معا عند النزول ويتوضونها معا عند الرحيل . فما هو الا جيل أو جيلان حتى تندمج اللغتان فتكثر الالفاظ للمعنى الواحد وتتعدد المعانى للفظة الواحدة .

فلو أن القبائل العربية قد اجتمعت كلها فى صعيد الى غير افتراق لتوحدت لغاتها فى لغة واحدة ، ولو قد افترقت كلها عن بعضها بعضا الى غير لقاء لتعددت لغاتها وتباينت حتى لا يعود بعضها يفهم عن بعض ولاصبحت لهجات كل من القبائل المنفصلة لغات محلية ضيقه الابعاد بالنسبة الى اللغة الام ، كالذى وقع فعلا للبابليين والكنعانيين وغيرهم من الساميين ــ والى حد ما للحميريين (أهل اليمن) .

لكن تكرار الافتراق والانشطار الذى ينجب الالفاظ الجديدة والمعانى الاضافية أو المختلفة ثم تكرار اللقاء الذى يجمع كل الحاصل الجديد فى بوتقة واحدة ، ثم اتصال البداوة من جهة أخرى لضرورة التبادل المستمر مع العروبة المتحضرة على جوانب المعرية ــ فى داخلها وخارجها ــ خلق هذه اللغة الفخمة السمينة ، والعملاقة بين اللغات .

ولو كانت البداوة انقرضت قبل جمع اللغة لضاع علينا الكثير من الالفاظ البدائية التى ما زالت فيها آثار مَنْشئها الصوتى ينم عليها ، وقد جرى ذلك فعلا للغات التى غادرت المعرية وابتعدت ولو قليلا عن فلواتها كالساميات اللائى فقدن من ذلك الشىء الكثير ، والحاميات اللائى كنّ أبعد فى المكان وأقدم فى الزمان فكان ما فقدنه أكبر مما فقدت الساميات ، ثم الآريات اللائى انقطعت صلتهن بالارض الام وأهلها ــ حتى ما كان منهن قريب المكان كالفارسية ــ فكان ما فقدنه أكثر وأكثر .

فهكذا تكونت مزايا اللغة العربية وعيوبها ــ بدا بيد .

البدائية والرقى

يقول فقهاء علم اللغة المحدثون من الفرنجة أن اللغات البدائية هى التى تكثر فيها الالفاظ القريبة من بداياتها الصوتية ، على حين أن اللغات الراقية لا يوجد فيها من ذلك الا القليل الاقل . وكثيرا ما نسمع حتى من بعض اللغويين العرب من يستنتج من ذلك أن العربية لغة بدائية من ثمّ .

الفكرة من أساسها مغلوطة ، تعميم . وجدوا هذا فى لغات بدائية وهذا فى لغات راقية ، فقالوا ذاك علة ذلك . وجعلوها قاعدة . المظهر شىء والسبب شىء آخر ، أن كلام رجل ملتج بالانكليزية وكلام رجل حليق اللحية بالفرنسية لا يعنى أن اختلاف حالة اللحية هو سبب اختلاف اللغة . فلنبحث عن سبب معقول لوجود الجذور الصوتية فى اللغات وغيابها ، غير الرقى والبدائية .

اللغات البدائية بقيت بدائية فبقيت الفاظها قريبة من أرساسها الصوتية لان أهلها لم يختلطوا بغيرهم ، لا لانهم لم يرتقوا . أما الشعوب المتحضرة ــ الاوربية مثلا ــ فقد جاءت من مناطق أخرى ولغاتها خليط من لغات شتى .. ابتعدت عن منشئها وأهلها ، وفقدت جذورها الصوتية لا عند ما ارتقى أهلها ولكن منذ كانوا همجا متوحشين ، فى أوربا نفسها ، بل قبل أن يأتوا الى أوربا أيضا .

لقد قلنا توا ان الساميات فقدت الكثير من ارسابها وأثولها لانسلاخها عن المجموعة الاعربية ، مع ان مواطنها بقيت قريبة من الوطن الام .

ولا ادل على فساد نظريتهم من ان اللغة العربية قد جمعت بين الخصلتين ، بَدْوُها تنطبق عليهم القاعدة الاولى (عن البدائيين) وحضرها لا تنطبق عليهم حالة الاوربيين المتحضرين مثلا لان العرب بدوهم وحضرهم لم يغادروا معريتهم ولم يبتعدوا عن موطن آبائهم الاوائل الذين خلقوا لغتهم لانفسهم بأنفسهم . ومن جهة اخرى، كم من لغة ما تزال همجية بدائية فى بعض القارات ، قد فقدت جذورها الصوتية لا يتمادها عن موطنها الاول واختلاطها بلغات بدائية أخرى .

ويمكننا ان نضعها قاعدة عامة فنقول : « ان السبب فى ضياع الجذور الصوتية من اللغات ليس التحضر والترقى ، بل الهجرات والمخالطات » .

ان الذى ذكرنا آنفا من كثرة التطورات اللغوية التى حققتها كل قبيلة على حدة ثم اجتماعها لتبادل ما جد لدى كل منها من الفاظ ومعان تنضاف الى رصيد اللغة المشتركة — لامر يشبه اسرة يخرج افرادها للكسب ثم يعود كل منهم بحصيلة كده ليضيفه الى ثروة الاسرة . حتى بلغت ثروة اللغة ذلك الحد التضخمى المشهور .

وان شكا بعضهم قليلا من تكاثر مفردات المعنى الواحد فان الامر الذى طالما شكوا منه كثيرا هو تعدد المعانى للفظ الواحد . وغريب أن يصدر مثل هذا التشكى عن مثقفين من العرب الذين يتقنون لغة او اكثر من لغات الاقطار الراقية الرائدة فى مجالات العلم والمخترعات . افلم يلاحظوا أن ذلك شأن اللغات الاجنبية ايضا ؟ إفتحوا اي معجم بالانكليزية او الفرنسية، وهما لغتان حديثتان وطفلتان بالقياس الى العربية الناضجة المكتملة القديمة ، تجدوا العجب من فوضى اختلاط المعانى وتبايناتها ، حتى فى المصطلحات العلمية والتقنية الحديثة .

فهذا عيب التطور اللغوى لا عيب العرب ولا عربيتهم .

المهجور

كثر الهجوم على الحوشي المهجور فى معاجمنا العربية والمطالبة باعدامه وتصفية اللغة من غوائله ، مع انه لم يسبب لنا ضررا ولا هم ذكروا انه ارتكب جناية . ان كانوا لا يريدون ان يستعملوه فمن الذى اجبرهم على ان يستعملوه ؟ وان كانوا لا يريدون منا ان نستعمله فمتى استعملناه ؟ انى لم افهم ماذا يقصدون. بديهى ان المعجم الموجز الطلابى يخلو من الالفاظ المهجورة وحتى القليلة الاستعمال . وفى كل لغة معاجم جيب صغيرة بحجم الكف او اصغر احيانا تقتصر على الالفاظ الاساسية التى يحتاج اليها المتعلم وطنيا او اجنبيا ، ثم يكبر حجم المعاجم فى طبعات مختلفة ، ويكبر حتى يبلغ العدد العديد من المجلدات الضخمة . ولكل من الناس حجمه الذى يناسبه من المعاجم والملابس . فما بالنا لا نرضى ان تكون كذلك الحال فى عربيتنا ؟

ثم كيف نفهم تراثنا الجاهلى ، بل حتى الاموى ، بل حتى العباسى ، اذا نحن صفينا معاجمنا من الالفاظ التى اصبحت اليوم مهجورة وكانت دارجة فى لغة الحديث اليومى عند اسلافنا ؟ ان كل لفظة لغوية كائن حى مهما يكن اليوم مغمورا مهملا . فمن الذى يطالبنا بان نئدها فعل الجاهلية ؟ كل كلمة لها حكايتها . نطق بها ناس من الاجداد وسجلوا بها شيئا من مشاعرهم او نبذة من حياتهم .

انظر الى كلمة (اعتقد يعتقد اعتقادا) . لفظة مهجورة ، نعم . غريبة لا جاذبية فيها ولا رشاقة ولا موسيقا ، نعم . لكن لها تاريخها . فاسمع ماساتها :

« العَقَد (بالفتح) — طائر يشبه الحمام ، او هو الحمام . والاعتقاد ان يغلق الرجل بابه على نفسه فلا يسأل احدا حتى يموت جوعا . . قال محمد بن انس : كانوا اذا اشتد بهم الجوع وخافوا ان يموتوا اغلقوا عليهم بابا وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعا . قال : ولقى رجل جارية تبكى ، فقال لها : ما لك ؟ قالت : نريد ان نعتقد . . » — اللسان .

افهذه كلمة يحل لاحد وادها لمجرد كونها حوشية مهجورة وهى تحمل مثل هذا التاريخ الفاجع ؟ كيف نعرف مآسى تلك الصحراء ودواهيها وحروبها وغرامياتها . . بدون معونة هذه الكلمة وامثالها ؟

اما اطلاق (العقد) على الحمام فسببه ان من سجية هذا الطائر ان كلا من الذكر والانثى يعتقد اذا ثكل صاحبه — فيضرب عن الطعام والشراب حتى يموت .

فبالاضافة الى ما للكلمة من قيمة تاريخية

بشرانية ، لها قيمتها العصرية العملية نحن ما زلنا بحاجة اليها لكثرة ما يقع فى زماننا من حوادث الاعتقاد، السياسى وغيره .

والاخبار كثيرة فى كتب اللغة عن عادات القوم ووجوه معايشهم مما لا تجده فى كتاب الا حين تقرا شرح معانى بعض الالفاظ التى اصبحت منكرة مجهولة لدينا ، وحتى لدى العباسيين والامويين ، بل حتى لدى الراشديين الذيـن سبقوا فاتخذوا من دراسة الشعر الجاهلى ولا سيما الغريب من الفاظه احدى وسائل تفسير القرآن .

هذا الى ان المهجور والحوشى او الوحشى او الآبد : ضرورى للدراسات اللغوية ، على الاساليب العصرية ولا سيما تاثيلا وترسيسا .

ان المهجور لثروة اى ثروة ، لا تراثية تاريخية نخرية وحسب بل عصرية وعملية ايضا : فهى مادة خامة لسبك المصطلحات الحديثة ــ علاوة على ما تقدم من مناقبها .

معلوم ان الاوربيين اعتادوا ان يستعيروا الفاظا مـن الاغريقية واللاتينية ليصوغوا منها مصطلحاتهم الحديثة لكيلا يخلط المصطلح بالفاظ الاستعمال اليومى من لغتهم ، مثل : telegraph (= tele : من بعيد + graph مكتوب) بدلا من قولهم بالانكليزية (مكتوب من بعيد : written afar)مثلا. وقد كان هذا المصطلح الاغريقى حوشيا وغريبا على الناس اول الامـر ، لكنهم تعلموه ودرجوا عليه .

وفى امكاننا استعمال الفاظنا المهجورة كـذلك لبعض المصطلحات بدلا من الالفاظ الادبية او الكثيرة الاستعمال . كنموذج اذكر (التوتين) استعملتها بدل (التوطين) فى ترجمتى لمعجم (صيانة الطبيعـة .) مقـابـل : (immobilization) التى ورد تعريفها فى المعجم : « تثبيت الحيوانات موقتا فى بقعة لغرض الاقتناص او الرماية او النقل او التدجين ، الخ » *. والتوتين من « وتن بالمكان : ثبت واقام » ــ وهكذا يتخصيص (التوتين) بالمعنى الاصطلاحى المذكـور ويبقى (التوطين) على معناه العام .

وكذلك (الضَّلّ) ــ زنة الملل ــ وهو لغويا : « الماء الذى يكون تحت الصخر لا تصيبه الشمس » استعملنـاه مقـابـل (ground water) بالانكليزية و (nappe fréatique) بالفرنسية ، وتعريفـه الاصطلاحى فى المعجم المذكور : « ماء تجمع تحت سطح التربة فوق اول طبقـة كتيمـة » .

وكذلك (الخَسْل) ــ زنة الفسل ــ الذى معناه اللغوى من « خسلت شيئا : رذلته ونفيته » استعملناه مقـابـل اصطـلاح (littering) بالانكليزيـة و (abandon de detritus)بالفرنسيـة ، الذى لا نجد له فى عربيتنا الرائجة ــ غير المهجـورة ــ كلمـة تؤدى معنـاه .

ولا ضير ان يكون لفظ المصطلح حوشيا غيـر متداول بل الافضل ان يكون كذلك لكيلا يلتبس معناه الاصطلاحى بمعناه العام . والمصطلحات واجبة التعلم على كل حالة ولن يفهمها غير المتخصص ولو كـانت من الالفاظ المانوسة الجارية يوميا على الالسنة . وان شئت برهانا فاذهب الى اى نجار او حداد او صائغ . . وسله عن مصطلحاته واسماء ادواته فستجد انك لن تفهم الكثير منها ولو كنت تعرف معانيها اللغوية العامة.

والعجب كل العجب ممن يتهمون العربية بالقصور فى مضمار المصطلحات . لقد اتى على العربية حين من الدهر كانت فيه اغنى اللغات طرا بالمصطلحات العلمية من طب وفلك ورياضة ولاهـوت وفلسفـة وتصوف ولغة . . وكانت اللغات الاوربية فى عصر نهضتها ، وعلى راسها اللاتينية ، هى التى تشكو عجزها عن مجاراة هذه العربية والترجمة عنها ، فاضطروا الى اقتباس الكثير من المصطلحات العربية كما هى وادخلوها فى لغاتهم مثل اللوغارتم والصفر والجبر والكحول والقلو وحرف (x) الذى كان ينطق شينا باللاتينية ، مقابـل الحرف (ش) العربى الذى اتخذه العلماء العرب رمزا لكلمة (شىء) بمعنى الشىء المجهول .

فلما نام العرب وخيمت عليهم عصور الجهـل والظلام قعدت لغتهم العربية تنتظر قيامهم . وها هم اليوم قد هبوا وها هى قد هبت معهم . وما من لغة عرفها تاريخ الفكر البشرى اقدر من عربيتنا هذه على سبك المصطلحات الدقيقة الموجزة ، لا المادية فقط بل المعنوية ايضا ، من عقلانية ونفسانية ووجدانية .

---

* « اللسان العربى » ــ العدد 12 ــ ج 1 ــ سنة 1975 ، ص 253 .

وبالاضافة الى هذا الكنز الذى لا يفنى من نفائس المفردات مأنوسها ومهجورها،لدينا رصيد عظيم من قابلية للاشتقاق لا مثيل لها فى اللغات ، وكفانا شاهدا تلك الذخيرة الهائلة من اوزان الصيغ العربية تربو على (1300) وزن ، يمكننا ان نصنفها ونستخدمها ونستثمرها فى (تقييس المعانى مع تقييس الاشتقاق)... وناهيك به منجما لاستخراج المصطلحات. وان رمتم شاهدا على فضل العربية من اقوال الاجانب — وهى كثيرة — فاليكم منها شهادة العلامة الفرنسى ارنست رينان — وهو ليس صديقا للساميين عامة ولا محبا للاسلام ، لكن عظمة العربية فرضت عليه مع ذلك ان يقول ، فى منتصف القرن التاسع عشر : « من اغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصَعُب حلّ سرّه انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة اول الامر واذا بها تبدأ فجأة فى غاية الكمال ، عظيمة السلاسة ، مفرطة الغنى ، كاملة الى حد انها لم يطرأ عليها حتى اليوم اى تعديل مهم . فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت من اول امرها تامة مستحكمة . ولم يمض على فتح الاندلس اكثر من خمسين عاما حتى اضطر رجال الكنيسة الى ان يترجموا صلواتهم الى العربية ليفهمها النصارى !

ومن اغرب المدهشات ان تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند امة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت اخواتها بوفرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها . . » .

لا نجادله فى ثنائه على العربية فالذى نظنه انها مستحقة له ، لكننا نخالفه فى حقيقتين علميتين : اولاهما ان العربية ان كانت غير معروفة اول الامر كما قال — ويصح هذا بالنسبة الى الاوربيين — فلا يعنى ذلك انها نشأت كاملة وانها لم تكن لها طفولتها البعيدة فى اعماق التاريخ . والثانية ان تلك اللغة التى قال انها فى غاية الكمال لم تكن من صنع البداوة وحدها فى حياتها المترحلة ، بل شاركت فى الجانب الحضارى منها مناطق الحضر المستقر على مدى الاجيال . وحسبها عراقة ويَدَماً أن من بناتها الساميات : البابلية والفرعونية والكنعانية ، فضلا عما تلاها من ارمية ومندائية وآشورية .

الترسيس

قلنا ان من مزايا عربيتنا انها تستطيع ان تبرهن علميا على صحة (علم نشأة اللغة) من محاكاة الاصوات ، وانها قادرة كذلك على ترسيس الالفاظ لنفسها ولغيرها من اللغات المتولدة منها ، حتى الآريات .

فلنضرب للقارىء مثلا . قال ابن الغابة الاعربى : (فرررر) يحاكى صوت رفرفة اجنحة الطائر وتعبيرا عن فراره عند الاقتراب منه . ومن هذا الصوت صيغ فعل (فرّ يفرّ فرارا) . ومنه تولد فعل فَرِق (كفرح) اى خاف ، وفَرَق (كضرب) بين الشيأين ، فصل بينهما . . وفارق ، وتفرّق ، ثم فرث وفرخ وفرد وفرز وفرش .. الخ ،،

ومثالا من ترسيس الالفاظ الاجنبية نذكر كلمة (perka) الاغريقية التى يعدها اللغويون اثل (الفرخ) بالعربية بسبب تطابق معناهما . بينما العكس هو الصحيح ، لاننا نجد فى العربية علة التسمية وهى (انفراخ) البيضة اى إنشقاقها ، عن الفرخ ، شبيها بتسمية (الفرّوج) ايضا لنفس السبب اى (لانفراج) البيضة عنه ، او لانه يفرجها ويخرج منها . ففى الاغريقية لا يمكن تاثيل perka لانها لا اثل لها فيها ، لكن يمكن تأثيلها وترسيسها فى العربية هكذا : perka — فرخة ، فرخ — فرق — فرّ — فرررر . .

ومن فعل (فرّ) نجد فى الانكليزية : fear خاف . . و flight : خوف ، فرار ،، و free حرّر واطلق ،، و fly : طار ، او ذبابة (لانها تطير) . و flea : برغوث (لانه يفرّ) .

وما نكتفى بذكر هذا المثل البسيط ، الا اختصارا.

وهم عند ما يبحثون عن اثول الفاظ لغاتهم يرجعونها الى مشابهات لها بلغات اوربية اخرى قديمة او حديثة ، لكنهم لا يقولون من اين جاءت فدخلت فى تلك اللغات ، فى العربية وحدها يجدون الجواب .

يلاحظ قارئنا الكريم ان هذا الترسيس ليس عرضا لتطور لفظ الكلمة فى عدة مراحل فقط بل لتطور المعنى فى عدة مراحل كذلك . وثمة من النماذج ما هو اطول تسلسلا واكثر تشعبا وتصاعدا فى معارج الارتقاء لا يتسع لها هذا المقام . (وقد تطرقنا فى كتابنا « مغامرات لغوية » وغيره من الدراسات الى ترسيس الكثير من الالفاظ الانكليزية وغيرها ، مثل riviera و

copper و calcium
و sing و table
و Caesar و saxon
.. وردددناها الى أرساسها العربية)

سمفـونيـة الصحـراء

يلاحظ فقهاء اللغة الاوربيون ان اللغات السامية كثيرا ما تعمد الى المجاز . هذا شأن اللغات كافة فى الواقع ، لكن الساميات اكثر جنوحا الى المجاز ، حقا .

ان تشابه وجوه البيداء ورتابة الحياة البدوية جعلت اولئك القوم يلتمسون التنويع والتفنن فى اى شىء لا دور سينما ولا مسرحيات ولا مذياع ولا مشواف ·حرمان من مسرات البيئة وتسلياتها وتنوعاتها ، مع الكثير من عواطف ملتهبة وحب صحراوى محرق وحروب طاحنة لا تكاد تهدا الا لتعود جذعة وخوف من كوارث محتملة لا عداد لها من محل وجوع وغارات مفاجئة وغير مفاجئة من اعداء من البشر أو السباع او الافاعى .. أو الجن ..

تلك النفوس الجياشة اكتشفت تنويعها الذاتى فى عالم (الكلمة) . يتصرفون فى تشقيق صيغها ويتحذقون فى تفتيق معانيها متلذذين فى الافصاح بها عن وجدانات النفس متلهفين الى الاصغاء اليها حين تصور لهم بالتعبير البارع الفنى عن وجدانات الغير .

ولم يكن ابتداع المترادفات الكثيرة للمعنى الواحد ولا المعانى الكثيرة للكلمة الواحدة كافيا لاشباع جوعهم الى التنويع والتفنن ولا سيما ان ذلك قد جاء عفويا وتطوريا تلقائيا . فمن شوقهم الى الخلق والتمتع بلذة الخلق والامعان فى تقوية التعبير — جاء تلمظهم احيانا بالالفاظ علاوة على تلاعبهم بالمعانى عن طريق التشبيه طورا والاستعارة طورا والمجاز والكناية والتلميح والتعريض احيانا .

وكثيرا ما ينقلب التشبيه او المجاز حقيقة . ابسط مثال على ذلك كلمة (الحسام) مثلا . معناه اللغوى هو : القاطع الحاسم ، ولا بد ان اول من اختصر الطريق فلم يشأ ان يقول (السيف الحسام) ، قد اراد الاكتفاء بكلمة (الحسام) ليترك للسامع ان يحزر ما هو الشىء المقصود . وليس الاختصار هو الغرض وانما وجدوا ان ذكر الصفة وحدها واسقاط موصوفها اوقع فى النفس وابلغ فى التعبير . ومن باب الاستمتاع باستعمال الصفة كناية عن الموصوف اتبعوا ذلك فى تسمية الكثير من الاشياء ولا سيما الخطير منها ، من داهية واسد وحية .

فى اللغات الراقية من اوربية وغيرها ايضا يعمدون الى المجاز والاستعارة . لكن من الذى يفعل ذلك منهم ؟ اهل الخيال والبلاغة .. الشعراء والادباء . وانما يدل اكثار العربية منه على ان اهلها شعراء وفنانون ، او على كثرة الشعراء المتفننين فيهم . ومن هنا قيل ان كل عربى شاعر ، ولا بد ان يصدر عنه البيتان او الثلاثة ، ولو مرة فى حياته .

وشدة اهتمام العربى بما يسمع من روائع الكلم منثورا ومنظوما فى ندوات القوم والتهامه اياه باذنيه وقلبه وفرط إلتذاذه به جعل ما يسمع يرسخ فى ذهنه ، فقويت بذلك حافظته فكان يعوّل عليها تعويلنا على اوراقنا ودفاترنا.فلما جاء الاسلام وانتشر التعليم جيلا بعد جيل اخذت الصحف المكتوبة تقوى والذاكرة تضعف تبعا لذلك حتى اخذوا بالتدريج يعتمدون على التدوين الى ان اصبح الاعتماد كله على التدوين ، على العهد العباسى * .

ان تحويل الالفاظ المجازية (الوضعية) الى الفاظ واقعية (عينية) قد كان منجما آخر اغدق علينا فيضا من الثروة اللغوية .

فمن هذا المنجم اغترف ابو عبد الله بن خالويه الهمذانى — الذى قال عنه ابن فارس انه جمع للسيف خمسمئة اسم وللحية مئتين ، كما ذكر الثعالبى ان حمزة الاصبهانى جمع ما يزيد على اربعمئة اسم للداهية .. وكما ذكر الاصمعى انه يحفظ للحجر — كالذى قلنا آنفا — سبعين اسما .. ومثله قول ابى العلاء المعرى انه يحفظ للكلب سبعين اسما كذلك ، فكل تلك الاسماء صفات استعملت مجازا بدل الاسماء ثم صارت اسماءا .

---

* بسبب عدم تنقيط الكتابة لم يكونوا يكتفون بقراءة الكتاب العلمى وحدهم ، مخافة التصحيف ، بل يشترطون على العالم قراءته على مؤلفه او على شيخ ، اى استاذ عالم عن شيخ آخر .. عن المؤلف ، لكيما ينجو القارىء من غوائل التصحيف واخطاء الناسخين . لكن تلك الحافظة الجاهلية الفذة ضعفت على كل حال .

الـداهيـة :

نستعرض بعض اسمائها لنرى طريقتهم فى تسميتها هى التى طالما لوّعتهم ، تجابههم فى صحـرائهم انّـى توجهوا وتأخذ عليهم كل سبيل .

من هذه الاسماء ما يهوّن امرها ، مثل : الملمّة (اى الزائرة ، من قولهم المّ بهم : نزل بهم وأقام) ، والنازلة (تشبه الملمة اى من الزيارة والنزول) .

ومنها ما هو اشد من ذلك مثل : الرُبَيق (بالتصغير من الرِيق اى الحبل تربط به البهيمـة) ، والأُرَيـق (بالتصغير ايضا ، من الارق والغم) .

ومنها ما هو اشد من هذا ايضا كالمصيبة (التى تصيب كالسهم مثلا) ، والنائبة (التى تعضهم بنابها) ، والجائحة (المهلكة) .. والفاجعـة .. والرزيّـة .. والفاقرة (التى تكسر فقار ظهرهم) ، وتلمظوا باسمها هذا كانما تدليلا فنطقوه كذلك : الفَيْقَر (كالفيلق) .

وسموها الصِمّ (كالصل) وهو مستعار من اسماء السيف (الذى يقطع الصميـم وهـو الفضروف بين الفقرتين) . ولا ادل على نزعتهم فى اللعب بالالفـاظ وتنويعها امعانا فى الافصاح وتشديد وقعه فى النفس ، نفس المتكلم والسامع ، من تمطّقهم باسمها هذا ــ وغيره كما سنرى ــ مذ نطقوه كذلك : الصَمّاء وصَمّام (بالبناء على الكسر كقطام) .

وبعض اسماء الداهية يراد بها التهويل وارهاب السامع بخشونة لفظها وقوة جرسه بالاضافة الى معناها ــ كانما ليخيفوا انفسهم ــ على عكس ما تفعله السباع اذ تخيف اعداءها بالزئير والزمجرة بالاضافة الى فتك المخلب والناب . من ذلك : العَنْقَفِير والخَنْفَقِيق ! ويبدو أن هذه الخنفقيق انحدرت من الخنق طفقوا يتلاعبون بنقطه حتى تخنفق . واما العنقفير فاثلها (العَنَـاق) ــ بالفتح ــ وهو احد اسماء الداهية ايضا ، ثم سموها (العنقاء) ــ وهى غير الطائر الوهمى المشهور ــ ثم (العَنْقَز) ــ بالزاى المنقوطة ، زنة الجندل . ولم يشف غليلهم كل ذلك الى أن جاء يوم فنطقوها العنقفير ، واستراحوا .

واحيانا يعمدون الى السخرية كقولهم كناية عـن الوقوع فى داهية : « وقعوا فى قرنى حمار ، أو فى است كلب » أو فى غير ذلكم .

وقد يكون اسمها بعيدا عن التدليل والاستهانة والسخرية ليفصح عن حقيقة شعورهم تجاهها ، مثل : الكريهة .

ولو نحن جمعنا اسماءها فى وزن وقافية لالفنا من سمفونية الصحراء ما يمكن تسميته (نشيد الهول) .

فيما يلى مثال من تلكم الاسماء المرعبة ، ممـا ذكرنا آنفا وما لم نذكر :

حاطمـةٌ جائحـة ضـرّاءُ
ملمّـةٌ نازلـة صمّـاءُ
صِمٌّ صَمَامِ نِكبـةٌ وبلـوَى
وبلـوةٌ بَليّـة بـلاءُ
داهيـةٌ فاقـرةٌ وفَيْقَـرُ
مصيبـة نائبـة بـاسـاءُ
قد وقعوا فى دردبيس باقعـه
وفى است كلبٍ وأُرَيْقٍ فاجعـة
وقمطريرٍ عَنْقَفِيـرٍ واقعـة
وخَنْفَقِيـقٍ أمّ هولٍ قارعـهُ !

السيـف :

معظم اسمائه من معنى القطع ، مثل الصارم والجُرَاز والقرضاب والمطبّق (كالمؤذّن : الذى يصيب طبَقَ العظم) والبتّار ،، ثم السيف (من السائف اى القاطع ايضا ، مثل صياغة الطيف من الطائف والغيب من الغائب والغيث من الغائث والليث من اللائث) ، اى أن (السيف) ايضا صفة وليس اسما جامدا كما توهم اللغويون منذ القدم .

« قيل ان ابن خالويه زعم انه يحفظ للسيف خمسين اسما ، فتبسم ابو على الفارسى وقال : ما احفظ له الا اسما واحدا وهو السيف ! قال ابن خالويه : فايـن المهنّد والصارم وكذا وكذا ! قـال ابـو على : هـذه صفـات » .

لكن بحثنا التاثيلى اظهر لنا أن (السيف) ايضا من الصفات ، كالذى اشرنا اليه * .

بالاضافة الى معنى القطع وردت للسيف اسماء هى مجرد نعت موضوعى لا يهتدف مدحا ولا ذما ، مثل

* تفصيل ذلك ورد فى حديثنا « دخيل ام اثيل » ــ اللسان العربى ، العدد 12 ــ 1975 ، ج 1 ــ ص 18.

الصفيحة والمأثور (فى متنه اثر) والمشطّب (فى نصله شطوب اى خطوط) والدائر (الذى طال عهده بالصقل) .

وقد يكون الوصف الواقعى غير موضوعى ، ليدل على انه ابلغ فى القطع ، مثل المفتّر (كالمظفر : الذى فى حده فقرات ، ومنه ذو الفقار سيف الامام على المشهور) والمشمل (كالمنبر : السيف القصير يُشتمل عليه بالثياب) .

ومن اسمائه ما ينبىء بمكان صنعه ، كالمشرقّ (نسبة الى مكان فى مشارف الشام) واليمانى والهندى او الهندوانى . وليست هذه التسميات المكانية بالمحايدة هى الاخرى لان المراد بها جودة الصنع .

ومن اسمائه ايضا ما يحمل معنى التغزل والمباهاة برونقه مثل : الابيض والصقيل والإبريق (البرّاق) والقشيب (الحديث الجلاء) والرقراق (الكثير الماء) والعقيقة (وهى اصلا : البرقة تستطيل فى عرض السحاب ، ومن ثم قالوا « سلّوا عقائق كالعقائق » اى سلّوا سيوفا تلمع كالبروق) .

ومن فرط حبهم له وعرفانهم بجميله وحسن بلائه فى نصرتهم سموه : الخليل ! وشبيه بذلك الرِداء (من الرِدْء — كالعبء — وهو : العون والناصر ، او من الرَدْي — كالسعي — اى : الصَدْم) .

أما من باب التّلطف باسمه فقد سموه الهَذّاذ والهَذْهاذ والهُذاهِذ (بالضم) .. والخَذِم (كالفطن) ، والخَذُوم (كالرسول) والمِخذَم (كالمنبر) والمُخَذَّم (كالمصدّق) .

ويمكن جمع بعض اسماء السيف فى ابيات من قبيل :

ولى صارم ماضي الصفيحة مِهذَمُ
هَذومٌ هُذام مِخذَم ومخذَّم
يمانٍ جراز باتر النصل قُرضُوبُ
رداءٌ قشيبٌ ذو الكريهة مشطوبُ
قضيب قُضاب مِقضبٌ وخليلُ
وصِمٌّ وصَمصَام يهذٌّ صقيلُ

الاسد :

وما ادراك ما الاسد ، كان شيئا مخونا فى تلك الايام ، لم يكن لديهم رشاشات ولا بنادق ليصيدوه من بعيد . هو الذى يصيدهم من قريب . وسهامهم لا تصيبه من مسافة مأمونة ، وان اصابته لم تصب منه مقتلا الا فى النادر ، لهذا لم يكن يجرؤ على مهاجمته ولا على مدافعة هجومه الا رامح او سيّاف .. وقليل ذلك البطل .

لذلك خصّوه ببعض اسماء الداهية والسيف — علاوة على اسمائه الرهيبة — مثل الصّمّ (كالسر) والصمصام (كالثرثار ، وكلاهما من اسماء السيف) والصِمّة (كالهمّة من اسماء الداهية والسيف) . وتلمظا باسمه اضافوا الصِمْصِم (كالسمسم) .

طبيعى اذن انهم عدوه بلاءا اذا اعتاد قطع الطريق على المسافرين او اقتحام المضارب والخيام ليلا على المقيمين . ومن ذلك قول المتنبى فى وصفه : نزلَتْ على الاردنّ منه (بليّة) . واحسبهم قد سموه فى قديم زمانهم (بَلْوَى) وهى كالبلية من اسماء الداهية . دليلي على ذلك ان (belua) تطلق باللاتينية على الحيوان الضخم من اسد وفيل وحوت . ولا نستغرب اطلاق اسم الاسد على اكثر من حيوان هنا فان ذلك شائع فى العربية ، ونذكر من اسماء الاسد بالذات : الصِمّة : الاسد والذكر من الحيات وانثى القنفذ — كما قلنا قبل — والسِيد (كالعيد) : الاسد والذئب .. والليث : الاسد وضرب من العناكب !

من اسمائه ايضا ما هو مستوحى من لونه ، منها : الورد (من لون «الارض» بدليل انها تسمى بالالمانية erd) (*) ، والعِفر (كالعطر) والعِفرّ (كالسجل) من العَفَر (كالقمر) اى التراب .

ومن اسمائه ما هو وصف لخلقته مثل : ابى لُبَد والملبد (كالمحسن ، من لبدته اى الشعر المحيط برقبته وصدره) ، ثم العِقرن (كالهزبر ، من عُقرته اى لبدة رقبته) ، والخطّار (المتبختر) ، واللائث (من لاث شيئا : لاكه فى فمه ، لانه يلوك اللحم كما نراه يفعل فى الحير *) ومن هذه صيغ الليث .

(*) فصّلنا ذلك فى بحث «الروض والعروس والعراق» — كتابنا «تاريخهم من لغتهم» .
* الحير — زنة الطير — حديقة الحيوانات .

وكم اسماء له من معنى الكسر . منها قبل كل شيء ، الكاسر ، ثم الفُضافر (بالضم ، من غضغت عودا : كسرته) ومنها الغضفر ايضا .. ثم العَرَنْدَس (كالسفرجل ، من عردسه : صرعه) .

وبعض الاسماء من معنى القطع مثل الهزبر (من هزبرت شيئا : قطعته) والقرضاب (من قرضبته : قطعته ، وهو من اسماء السيف) ..

وأُسامة (من سام على القوم : اغار عليهم نعاث نيهم) ..

ومن اسمائه المتنوعة : الصيّاد والصاد ، ثم الربيال (ويخالها اللغويون تخفيفا من الرئبال ، بالهمز لكننا نرى العكس لان الكلمة مشتقة من الرَبْل والرَبْل اى التصيد ، ثم همزت) .. والضيغم (العَضّاض) ، والضرغام (الغضوب ، من ضَرِم — كفرح — وتضرّم عليه : احتدم غضبا ، وضرِم فى الطعام : جدّ فى اكله لا يدفع شيئا منه) ، والسِيد (كالعيد ، من السيادة ، تخفيفا من السيّد — بالتشديد — كما تنطق الكلمة بالاسبانية بنفس المعنى : alcid).

ويبلغ تلذذهم بتنويع الصيغ حد الاغراق فى نعت هذا الحيوان فى مثل الصِم والصمّة والصِمصِم (وكلها بالكسر) والصُماصم (بالضم) والصَمصَام (بالفتح) وهى مستعارة من اسماء السيف . ثم تبلغ النشوة فى التمطّق والتنويع اقصاها فى : العِفْر (كالعطر) والعِفِرّ (كالسجل) والعفريت والعفريـن والعِفَرْن (كالهزبر) والعَفَرْنَى (كالعَرَضْنَى ، بسكون الضاد وفتح الباقيات) والعِفِرناة (بكسرتين) والعِفْرية (كالإطرية وهى من اسماء الداهية) والعِفرس والعِفريس والعِفراس (وكلها بالكسر) والعُفروس (كالعصفور) والعَفَرْنس (كالسفرجل) والعَفَرْنة .. فهذه أربع عشرة لفظة من مادة واحدة هى (العفر) فهل يعنى هذا شيئا غير قوة حاسة الطرب والتلحين فى القوم ؟

والكثير من اسماء الاسد ادل على الاعجاب والتقدير منها على الكراهية والذعر .

وان شئنا وضع بعض اسماء هذا البهيم البطاش فى وزن ينتظمها لتاخذ مكانها فى سمفونية الصحراء عرضنا بعضها هكذا مثلا :

هو الكاسر الخطّار والرابض الرادي
ابو لبد المعروف بالصِمّة الصاد
هو الاسد الرئبال سيدُ عَرَنْدَسُ
عِفَرْنٌ وعفرين عَفَرْنَى عَفَرْنَسُ !
وعِفْرٌ عِفَرٌ عِفرسٌ وعفرفره
وعفرية العفريت ليث وقسوره
اسامة وَردٌ ان تَربَّد حيدرُ
وان صال قرضاب هزبرٌ غضنفرُ
وإن نام ريّاض وإن قام ضيغم
صُماصِمُ صَمْصَام وصِمٌّ وصِمْصِمُ !..

ما كان العرب بطبيعة الحال يسردون اسماء الداهية والاسد والسيف على هذا المنوال ، وانما كانوا يستعملون كلا منها فى عبارة تحكى موقفا متازما او تروى خبرا مروّعا ، فيكون للكلام رهبته ووقعه المشحون بالطاقة الشعورية المؤثرة .. يختارون لكل حالة أحد هذه الاسماء الكثيرة المعبرة ، اما مجرد سردها على هذه الوتيرة فلا يؤدى الا المقدار الضئيل من الغرض الذى نريد اليه .

على ان اختلاف المعاجم وكتب اللغة فى تعريف هذه الاسماء وفى استعمالاتها ينبىء أن الاسماء والصيغ قد كانت اكثر بكثير مما أحصاه الرواة ، ما دام باب الاستعارة مفتوحا ، على مصراعيه امام الجميع . لقد كان فى وسعهم وما زال فى وسعنا — ان نستعير من كل نعتٍ إسماً لاى شيء ، فاذا صادف استحسانا شاع وفرض نفسه على الاذواق .

ولو جمعنا كل تلك الاسماء مع اسماء الحية والجمل والحصان والغزالة وحتى الكبش والتيس .. ثم العسل والخمر والحب والبغض والخوف والغضب والحرب .. ووضعنا كلا منها فى عبارة مناسبة متفجرة .. لألّفنا (سمفونية الصحراء) ..

وهل الشعر الجاهلى ، بجملته ، غير ذلك ؟